



جامعة دمشق - كلية الشريعة

مؤتمر التسامح الديني في الشريعة الإسلامية

ورقة مقدمة بعنوان

أسس التعايش في الإسلام

د. نزار أسعد نزار

رئيس قسم علوم القرآن والحديث

كلية الشريعة - جامعة دمشق

مؤتمر التسامح الديني في الشريعة الإسلامية
٢٠١٩ / رجب / ١٤٣٠ هـ الموافق ١١ - ١٢ / تموز / ٢٠٠٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

أسس التعايش في الإسلام

الملخص

قَبِلَ الإسلام الآخر وأرسى قواعد للتعايش السلمي معه، انطلاقاً من الوحدة الإنسانية، وحرية الاختيار، وتحقيق العدالة والمساواة بين الجميع دون تمييز، ونشر السلم العالمي، داخلياً وخارجياً، والآخر كل من لا يدين بالإسلام ولا يرضاه حكماً في مختلف ميادين الحياة.

مقدمة:

إن السؤال الذي يطرح نفسه في هذه المسألة، ما دواعي قبول الآخر والرضا به؟ وما الأسس الناظمة للتعايش معه؟ مع أن الإسلام أعلن أنه الدين الحق الذي لا يقبل الله ﷻ غيره يوم الحساب.

ومبعث قبول الآخر، أن دورة الحياة الدنيا تسير وفق سنن إلهية، بدايتها الاستخلاف ومبناها حرية الاختيار، مع وجود دواعٍ للخير وللشر؛ ابتلاءً واختباراً، مؤداه اختلاف التوجهات وتعدد الاختيارات، مما يعني قبول الآخر وإن اختلف معنا أو خالفنا؛ لأن الله ﷻ هو الحكم بين عباده فيما اختلفوا فيه، وهذا يستدعي وجود قوانين بيّنة يُحتكم إليها؛ لأن من نتاج دواعي الاختلاف، تدافع الإرادات وصراع القوى، والمبدأ الرئيس في الإسلام أن الصراع ليس أمراً حتمياً أو حكماً مقضياً، بل الأساس فيه قبول الآخر التعايش معه؛ لذلك وضع القرآن الكريم أسساً ناظمة للعلاقة السلمية مع الآخر، وفقاً للسنن الإلهية. وإن من السذاجة تصور عالم خالٍ من النزاعات، يسوده الوئام ويعمه السلام، بل الصراع والتدافع باقيان بقاء الخير والشر، والحق والباطل، والابتلاء والاختبار، إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، وقد كانت البداية بين آدم ﷺ وإبليس.

وشهد العالم عبر تاريخه الطويل سلسلة حروب، تدافعت فيها القوى، وتصارعت الإرادات، نال العالم الإسلامي وخاصة جزءه العربي نصيباً أكبر؛ لأهميته جغرافياً وروحياً؛ حيث يقع في وسط

العالم، وهو مهبط الرسالات السماوية: ولأن الإسلام الدين الوحيد الذي حافظ على نقائه، ولأنه الأكثر جذباً وتأثيراً في الآخرين، مما استعدى قوى البغي للإجهاز عليه وعلى معتنقيه، وأكثر الأَطْطَاعِ عبر التاريخ أتت من الروم وأحفادهم، من قبل بعثة المسيح ﷺ وبعد أن تنصروا، لكن الأمر كما قيل: لم تنصر الروم، ولكن تروّمت النصرانية،^(١) وليس الوزر على النصرانية كدين بشر به عيسى ﷺ، إنما على الأديعاء والمتنفعين، الذين اتخذوا الدين وسيلة لتحقيق أطماعهم، وإن كان الصراع قد انتهى مع أهل المشرق بعد عدة جولات، إما باعتراف الإسلام، وإما بمسالمة معتنقيه، إلا أن الاحتدام استمر مع الغرب عبر جولات كثيرة، وحتى يومنا هذا، وكانوا البادئين في الغالب، مصداقه ما روي عن رسول الله ﷺ: «فَارِسٌ نَطْحَةٌ أَوْ نَطْحَتَانِ، ثُمَّ لَا فَارِسَ بَعْدَ هَذَا أَبَدًا، وَالرُّومُ ذَاتُ الْقُرُونِ، كُلَّمَا هَلَكَ قَرْنٌ خَلَفَهُ قَرْنٌ، أَهْلُ صَبْرٍ، وَأَهْلُ بَحْرٍ، لِأَخْرِ الدَّهْرِ، هُمْ أَصْحَابُكُمْ، مَا دَامَ فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ».^(٢)

ومنذ البداية دعا الإسلام إلى الحوار مع الآخر، خاصة أهل الكتاب، والدعوة مفتوحة إلى يوم القيامة؛ لإقامة حلف فضول يتوافق فيه على مبادئ وأسس تكفل الحقوق وتحقق الأمن، دون أي شكل من أشكال التمييز، لتجاوز الأحلاف المعاصرة سواء أكانت دولية أم إقليمية؛ لأنها لا تحقق إلا مصالح الأقوياء.

(١) قال القاضي عبدالجبار، (ت ٤١٥ هـ) في كتابه تثبيت دلائل النبوة: لتعلم أن الروم ما تنصرت ولا أجابت المسيح، بل النصراني ترومت وارتدت عن دين المسيح وعطلت أصوله وفروعه وصارت إلى ديانة أعدائه.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، (١٩٦٨٨) (٢٩٨/٥). المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، باب إخباره ﷺ بأن فارس تنقرض وأن الروم تبقى فكان كذلك. (٣٨٣٧) (٦٦/٤)، قال المناوي: إسناده ضعيف، التيسير بشرح الجامع الصغير، (٣٢٢/٢). والحديث مرسل؛ لأن عبد الله بن محرز راوي الحديث، تابعي، (ت سنة ٩٩، وقيل قبلها). تهذيب الكمال للمزي، (١٠٦/١٦). سير أعلام النبلاء، (٩٤/٤).

في قوله ﷺ: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيُضِدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْرَجُونَ» [الأنفال ٣٦]، إشارة إلى استمرار عداوة الآخر؛ لدلالة الفعل المضارع: «يُنْفِقُونَ»، ودلالة قوله: «سَيُنْفِقُونَهَا» وما بعده على الوقوع في المستقبل.

ففي هذه الدراسة بيان لأسس التعايش الرئيسة وقواعد التعامل مع الآخر، من منظور إسلامي؛ وذلك بتحليل النصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية، وعرض صور من الواقع التاريخي واستعراض شهادات بعض المنصفين.

الأساس الأول، الوحدة الإنسانية:

تتصف دعوة الإسلام بالعالمية والإقرار بالوحدة الإنسانية، فالله ﷻ في القرآن الكريم رب العالمين وليس رب العرب أو رب المسلمين فحسب كما عند اليهود لهم ربهم وللآخرين أربابهم،^(١) وهو إله الناس جميعاً: ﴿إِلَهُ النَّاسِ﴾ [الناس ٣]. والقرآن الكريم هدى للناس: ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة ١٨٥]، وخاطب الله ﷻ الناس جميعاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة ٢١]، ونسبهم إلى أبيهم آدم ﷺ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف ٣٥].

وبين أن الناس خلُقوا من نفس واحدة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء ١]. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام ٩٨]. وأن ربهم واحد وأباهم واحد، قال ﷻ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى».^(٢)

(١) قال عبد الأحد داود: اليهودية دين ملي خاص، وكل الأنبياء فيها أرسلوا إلى هذا الشعب نفسه وعملوا على تأييد ذلك الدين، نحن مضطرون إلى احترام شعب أحبه الله وأنعم عليه بهذا القدر، وعلى تعظيم شريعة موسى التي أنتجت وأنجبت هذا المقدار من الأنبياء الصالحين. وكل أنبياء بني إسرائيل كانوا قد أخبروا بأن سيظهر (ملكوت الله) و(الدين العام) ومهما كانوا يدعون طول مدة بقاء شريعة موسى، أن (يهوه: الله) إله إسرائيل فحسب، فإنهم كانوا يشعرون بأنه سيأتي يوم فيه يتعرف الله إلى جميع الأمم، وأنه سيجمعهم ويجعلهم ملة واحدة. وهامهم أولاء لا يزالون ينتظرون أن يأتي شخص من نسل إبراهيم ﷺ ليشكل ذلك الملكوت، واليهود لما لم يجدوا الصفات التي ينتظرونها في المسيح ﷺ، لم يقتنعوا بأنه هو المسيح الحقيقي المبشر به ولذلك رفضوه؛ لاعتقادهم أن شريعته التي ستكون ملكوت الله هي شريعة موسى مع قليل من التحوير، وأن مركزه أورشليم وأن يومه المقدس يوم السبت. الإنجيل والصليب، (ص ١٤٧).

(٢) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: خَطَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي وَسْطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ خُطْبَةَ الْوَدَاعِ، فَقَالَ... الْمَسْنَدُ، (٢٣٥٣٦) (٤١١/٥)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد، (٥٨٦/٣). شعب الإيمان، (٤٧٧٤) (١٣٢/٧).

وأن الرسول ﷺ مبعوث للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء ١٠٧]، ومرسل للناس كافة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ ٢٨].

والناس في المنظور الإسلامي شعوب وأمم خلقت ليتعارفوا ويتآلفوا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات ١٣].^(١) منهم المؤمن والكافر ومنهم البر والفاجر: قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَقَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عِبَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَتَعَاطَمَهَا بِأَبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ كَرِيمٌ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ مَهِينٌ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ».^(٢)

والإنسان خليفة الله ﷻ في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة ٣٠]، عليه عمارتها: ﴿هُوَ أَشْأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود ٦١]، عبر أجيال متعاقبة: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل ٦٢]،^(٣) مما استدعى استمرار الجنس البشري، فخلقهم الله ﷻ من نفس واحدة، وجعل منها زوجها: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر ٦]، الذكر والأنثى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ [النجم ٤٥]؛ ليحصل السكن: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا

(١) يا أيها الناس: يا أيها المختلفون أجناساً وألواناً، المتفرقون شعوباً وقبائل، إنكم من أصل واحد. فلا تختلفوا ولا تفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بديداً. في ظلال القرآن، (٣/٧).

عَنْ أَبِي نَضْرَةَ حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَسْطِ أَيَّامِ الشَّرِيقِ فَقَالَ «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَىٰ عَرَبِيٍّ وَلَا لَأَحْمَرَ عَلَىٰ أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَىٰ أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ». المسند، مسند الأنصار، (٢٣٤٨٩)(٢٣٤٨٩/٣٨).

(٢) سنن الترمذي، أبواب فضائل القرآن، بابٌ ومن سورة الحجرات، وقال: حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ يُضَعَّفُ، ضَعَّفَهُ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ وَغَيْرُهُ، وَهُوَ وَالِدُ عَلِيِّ بْنِ الْمُدِينِيِّ. (٣٢٧٠) (٣٨٩/٥). شعب الإيثار، (٤٧٦٧)(١٢٧/٧).

(٣) استخلف الله ﷻ جنس البشر في الأرض أولاً. ثم جعلهم قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، يخلف بعضهم بعضاً في مملكة الأرض التي جعلهم فيها خلفاء، والله فطرهم وفق النواميس التي تسمح بوجودهم في الأرض، وزودهم بالطاقات والاستعدادات التي تقدرهم على الخلافة فيها، وتعددهم لهذه المهمة الكبرى. في ظلال القرآن، (٣٩٢/٥).

لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا» [الأعراف ١٨٩]، وتنشأ المودة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم ٢١].

وبجانب وحدة الأصول والغايات، اختلفت الألسنة والألوان: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَّاءَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الروم ٢٢]، والإنسان لا يعييه لون بشرته أو اختلاف لسانه؛ لأن ميدان التفاضل العمل الصالح: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات ١٣].

ويُقر الإسلام تعدد الشرائع عبر التاريخ الإنساني: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة ٤٨)، مع وحدة الدين: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى ١٣]. والإيمان بكل الرسل: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولَ بَمَا نُزِّلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة ٢٨٥].

والنبيون إخوة، شرائعهم شتى ودينهم واحد: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتِ أُمَّهَاتِهِمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ». (١) تشكل دعوتهم عقداً متكاملًا، بدايته آدم عليه السلام، ونهايته خاتم النبيين: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قِبَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبَنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ». (٢)

(١) وتتمته: «وَإِنَّهُ نَازِلٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ رَجُلًا مَرْبُوعًا إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبِيَاضِ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَفْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصْبَهُ بَلَلٌ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخُنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجُزْيَةَ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَيَهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَلَلَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَيَهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ، وَتَقَعُ الْأَمَنَةُ عَلَى الْأَرْضِ، حَتَّى تَرْتَعَ الْأَسْوَدُ مَعَ الْإِبِلِ، وَالنَّهَارُ مَعَ الْبَقَرِ، وَالذَّنَابُ مَعَ الْغَنَمِ، وَيَلْعَبُ الصَّبِيَّانُ بِالْحَيَّاتِ لَا تَضُرُّهُمْ، فَيَمُوتُكَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يَتَوَفَّى وَيُصَلَّى عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ». المسند، واللفظ له، (٩٢٧٠) (١٥٣/١٥). البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (٣٢٥٩) (٣/١٢٧٠).

(٢) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، (٣٣٤٢) (٣/١٣٠٠). مسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، (٢٢٨٦) (٤/١٧٩٠).

والإنسان مكرم بغض النظر عن دينه أو معتقده، حياً كان أو ميتاً: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الاسراء ٧٠]. قَالَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى: «كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالْقَادِسِيَّةِ فَمَرُّوا عَلَيْهَا بِجِنَازَةٍ فَقَامَا فَقِيلَ لَهُمَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَيُّ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَقَالَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ فَقِيلَ لَهُ إِنَّهَا جِنَازَةٌ يَهُودِيٌّ فَقَالَ أَلَيْسَتْ نَفْسًا»^(١).

الأساس الثاني، حرية الاعتقاد:

العنوان الرئيس في العقيدة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة ٢٥٦] والاختلاف سنة من سنن الله ﷻ في خلقه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود ١١٨-١١٩]، ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً: ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد ٣١]، ولجعلهم على طريقة واحدة: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود ١١٨]. والقاعدة الكبرى في هذا: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ ٢٥].^(٢)

وإن من دواعي حرية الاعتقاد، التكليف الإلهي المبني على الابتلاء والاختبار، مما يعني حرية اختيار منهج أو سلوك طريق، بعد نصب الأدلة وإرسال الرسل: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد ١٠] مما ينتج عنه تعدد الاتجاهات، وتنوع الثقافات: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ﴾ [البقرة ١٤٨].

(١) البخاري كتاب الجنائز، باب مَنْ قَامَ لِحِنَازَةِ يَهُودِيٍّ، (١٢٥٠) (٤٤١/١)، مسلم كتاب الجنائز، باب القيام للجنائز، (٩٣١) (٦٤٢/٢).

(٢) قال الفخر الرازي: أضاف الإجماع إلى النفس وقال في حقهم: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ذكر بلفظ العمل لثلاث يحصل الإغضاب المانع من الفهم، وقوله: ﴿لَا تُسْأَلُونَ﴾، ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾، زيادة حث على النظر وذلك لأن كل أحد إذا كان مؤاخذاً بجرمه فإذا احترز نجا، ولو كان البريء يؤاخذ بالجرم لما كفى النظر. التفسير الكبير، (٢٢٣/٢٥).

وغاية التعدد والتنوع، إكمال دورة الحياة الدنيا المبنية على التسابق لتحقيق منافع دنيوية وأخروية، والتسابق نفسه محل للاختبار والامتحان: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة ٤٨].

والإسلام بما يمثله من نظام عيش ودستور حياة اختاره الباري ﷻ ليكون المنهج الرباني للبشرية جمعاء منذ ختم النبوة إلى أن يرث الأرض ومن عليها، لا تخالف فروعها أصوله، ولا تنقض تطبيقاته مبادئه، فانطلاقاً من هذا المبدأ وتطبيقاً له، لم يجبر المسلمون أحداً على اعتناق الإسلام، مع أن فيه إعلاناً صريحاً بأنه الدين الناسخ لما سبقه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران ١٩]، الذي لا يقبل الله غيره: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران ٨٥]، وأن محمد بن عبد الله ﷺ خاتم النبيين: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب ٤٠]. وشريعته هي الحاكمة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة ٤٨]. ومع هذا ترك الإسلام حرية الاختيار للإنسان؛ لتتحقق حقيقة الاختبار: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف ٢٩]. والرسول ﷺ إنما هو بشير ونذير: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف ١٨٨]، ليس له إكراه أحد على الإسلام: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس ٩٩]،^(١) أو عليه مسؤولية عمّن أعرض: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى ٤٨]؛ ولهذا منع الإسلام سب ما يعبده الآخرون أو

(١) قال (بيجي رودريك): أذن الإسلام لرسوله ﷺ بالجهاد لرفع الظلم والاضطهاد؛ ولإزالة العقبات التي تقف في وجه الدعوة إلى الإسلام، التي لا تكره أحدًا على الدخول في هذا الدين، وإنما تدعو الناس إليه وتترك لهم الحرية الكاملة للاختيار، إن الإسلام هو دين السلام مع الله والسلام مع الناس جميعاً. وما إن يدخل الإسلام بلداً من البلدان المفتوحة حتى يقبل أهلها جميعاً على اعتناقه ويعاملون معاملة الفاتحين سواء بسواء، ومن احتفظ منهم بدينه لقي أكرم معاملة... تعتبر قوانين الحرب في الإسلام أكثر القوانين إنسانية ورأفة، فهي تضمن السلامة التامة للنساء والولدان والشيوخ وجميع غير المحاربين. قالوا عن الإسلام، د. عماد الدين خليل، (ص ٢٨٧).

يعتقدونه؛ لأنه ليس من خلق المسلم الموقن بإيمانه، السب أو اللعن، هذا من جهة، وكى لا يكون ذريعة لسب الله تعالى، من جهة أخرى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام ١٠٨].^(١)

واعترف بدور عبادة الآخرين: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هَدَمْتَ صَوَامِعُ وَيَبَعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج ٤٠]،^(٢) وحافظ عليها: أرسل خالد بن الوليد إلى أهل دمشق: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل دمشق، إني أمتهم على دمائهم وأموالهم وكنائسهم ألا تسكن ولا تهدم، شهد يزيد بن أبي سفيان، وشرحيل بن حسنة... وكتب في رجب من سنة أربع عشرة.^(٣)

حق العيش للجميع:

تقتضي حرية العقيدة منح حق العيش للجميع دون تمييز بسبب دين أو لون أو عرق، وقد نعم غير المسلمين في ظل الدولة الإسلامية بالأمن، ومنحوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وذرياتهم، وسمح لهم ممارسة الطقوس وإقامة الشعائر، وقد حدث هذا منذ اللحظة التي أعلن فيها قيام دولة الإسلام في المدينة المنورة واستمر إلى يومنا هذا، فرسول الله ﷺ بعد أن وطأت قدماه المدينة قام بثلاثة أعمال نظم فيها سير الحياة للدولة الناشئة، وهي: تأسيس المسجد النبوي؛ ليكون داراً للحكومة، ومعهداً للتعليم، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ لصهر الفريقين في بوتقة الإيمان، ووثيقة المدينة؛ لتقنين

(١) قال السُّدي: لا تسبوا الأصنام فيسبوا من أمركم بما أنتم عليه من عيبيها، وقيل لا تسبوا الأصنام فيحملهم الغيظ والجهل على أن يسبوا من تعبدون كما سببتم من يعبدون. أحكام القرآن للجصاص، (٤/١٧٠).

(٢) (هُدِّمَتْ)، خربت باستيلاء المشركين على أهل الملل، صَوَامِعُ للرهبان وهي الأديرة، (وَيَبَعُ) كنائس للنصارى، (وَصَلَوَاتُ)، كنائس اليهود، سميت بها لأنها يصلى فيها، وقيل: أصلها: صلواتا بالعبودية، فعربت، (وَمَسَاجِدُ)، معابد للمسلمين. (يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا)، يذكر في المواضع الأربعة المذكورة، وتنقطع العبادة بخراجها. التفسير المنير، (١٧/٢٢٥). وانظر: جامع البيان في تأويل القرآن، (١٨/٦٥٠)

وتفسير ابن كثير، (٥/٤٣٦).

(٣) مختصر تاريخ دمشق، (١/٧١).

العلاقة بين رعايا الدولة من مسلمين ويهود. وهم جميعاً يشكلون أمة واحدة،^(١) في ظل قوانين عادلة.^(٢)

كما كتب رسول الله ﷺ عهداً مماثلاً لوفد نصارى نجران، بعد أن أقاموا في المسجد النبوي وأذن لهم رسول الله ﷺ أن يصلوا فيه صلاة عيد الفصح.^(٣) كذلك كتب الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه عهد أمان لأهل القدس.^(٤) ولما استقدم المأمون من الري (يزدان بخت) زعيم المناوية، لمناظرة بعض المتكلمين المسلمين، وبعد أن أفحم دعاه المأمون لاعتناق الإسلام، فأجاب: نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة، وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم. فقال المأمون أجل.^(٥)

(١) مما جاء في الوثيقة: هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس... وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم... وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم. المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض، (١٤٤/١).

(٢) لا يمكن وصف الدولة الإسلامية بأنها دولة دينية بالمفهوم الغربي، (ثيوقراطية)، يحكمها رجال دين بموجب حق إلهي، بل دولة يحكمها من تختاره الأمة ليطبق شرع الله ﷻ على رعايا الدولة، مع صون حقوق الرعايا غير المسلمين، والمحافظة على خصوصياتهم، فلا يطبق عليهم ما له صلة بالعقيدة أو العبادة، إنها يطبق عليهم ما يدخل تحت القانون العام.

(٣) حضر وفد نصارى نجران إلى المدينة سنة (١٠ للهجرة)، جاء فيه: لنجران وحاشيتها وسائر من يتحلل دين النصرانية في أقطار الأرض جوار الله وذمة محمد رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم... أن أحمي جانبهم وأذب عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم ومواضع الرهبان ومواطن السياح، وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي.. لأنني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم... حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم. فقاموا يصلون في المسجد نحو المشرق فقال، رسول الله ﷺ دعوهم. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمع وتحقيق د. محمد حميد الله آبادي، (ص ١٧). طبقات ابن سعد، (٣٥٧/١). فتوح البلدان. (٧٨/١).

(٤) مما جاء فيه: هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين، أهل إيليا من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكروهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم... ومن أقام منهم فهو آمن... وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين. تاريخ الطبري، (١٠٥/٣).

(٥) الفهرست، (٤٠١/١).

التسامح بين النظرية والتطبيق:

في الوقت الذي رفع فيه الإسلام شعار التسامح نظرياً، وطبقه المسلمون عملياً، فشعارات الآخرين تسقط عند أول اختبار، وما فعله الأسبان بالمسلمين بعد سقوط الأندلس،^(١) وما جرى في الحروب الصليبية،^(٢) ومحاكم التفتيش،^(٣) وما يجري الآن من حرب ضد الإسلام ورموزه، وما مارسوه من اضطهاد ديني وسفك دماء لمخالفهم في المذهب شاهد عيان على زيف دعاويهم

(١) قالت زيجريد هونكه: إن إسبانيا تحت حكم العرب مثال يبين - أي على التسامح - أنه بينما كانت أوروبا الكاثوليكية دون جبال البرانس تقضي قضاءً مبرماً على كل دين آخر يجروء على الظهور إلى جانب دينها الكاثوليكي، بصفته الدين الأوحده للخلاص؛ وذلك باتباعها سياسة التفرقة الصارمة إزاء غير النصارى، نرى أن النصرانية لم تُستأصل ولم تُضَع تحت حكم العرب... كذلك اليهودية التي دأبت الكنيسة على تحميلها وزر موت المسيح... تمتعت في ظلال الحكم العربي... لأول مرة بعد الشتات بمطلق الحرية إلى أن استعادت النصرانية الحكم في إسبانيا وطردت اليهود. الله ليس كذلك (ص ٥٢).

(٢) قال الذهبي: وقد كان لتسامح المجاهدين وعلى رأسهم صلاح الدين، وأخلاقهم الفاضلة عندما فتحوا بين المقدس أثر كبير في نفوس أعدائهم، فقد امتدحهم مؤرخوهم، وأثنوا عليهم ثناء طيباً، فهذا هو (رنسان) يقول: الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، بينما كان الفرنج منذ ثمان وثمانين سنة يخوضون في دماء ضحاياهم، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب، ولم يجل بأحد من الأشخاص مكروه، إذ صار رجال الشرطة بناء على أمر صلاح الدين يطوفون الشوارع والأبواب، يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين.

ملكنا فكان العفو منا سجية * فلما ملكتم سال بالدم أبطح

سير أعلام النبلاء، (١٧٩/١٩).

قال (يورجا): ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس بأسوأ طالع، فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء في القصور التي استولوا عليها. وقد أسرفوا في القسوة فكانوا يبقرون البطون. ويبحثون عن الدنانير في الأمعاء! أما صلاح الدين، فلما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين، ووفى لهم بجميع عهوده، وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهاده رآفتهم، حتى إن الملك العادل، شقيق السلطان، أطلق ألف رقيق من الأسرى، ومن على جميع الأرمن، وأذن للبطريك بحمل الصليب وزينة الكنيسة، وأبيح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن. في ظلال القرآن، (٦/٤).

(٣) استمرت محاكم التفتيش قرابة ثلاثة، تأمر بالتقتيل والتعذيب والإكراه. قالت السيدة زيجريد: إذ لم يكن انتصار النصرانية يعني سوى طرد اليهود والمسلمين واضطهادهم وإكراههم على التنصير واستئناف نشاط محاكم التفتيش التي قامت بتعقب كل من يتخذ سوى الكاثوليكية ديناً، والحرق العلني في احتفالات رسمية تحفها الطقوس والشعائر الكنسية لكل من اعتنق الإسلام أو اليهودية. وما إن دالت دولة العرب في إسبانيا حتى اندثرت معهم أزمى وأخصب حضارة ملكتها أوروبا في العصور الوسطى، وغرقت في بحر من الرعب وأتت فيه أمواج التعصب الديني على كل شيء وابتلعتة ابتلاعاً. ولم تلغ محاكم التفتيش إلا في عام ١٨٣٤ م. الله ليس كذلك، (ص ٤٥).

وسقوط شعاراتهم، فأقباط مصر كانوا يعيشون تحت الحكم الروماني في ذل مرير مع اشتراكهم في الدين، بسبب اختلافهم المذهبي، فالأقباط يعتقدون المذهب الأرثوذكسي، والرومان المذهب الكاثوليكي، فكان الرومان يعذبون الأقباط ويقتلون رجال الدين منهم، فكنيسة "مارجريس" كانت العبادة تمارس علناً حسب المذهب الكاثوليكي، وخفية في السرايب حسب المذهب الأرثوذكسي؛ فرقاً من سياط الرومان.^(١)

وكان من نتائج التسامح وقبول الآخر، أن كثيراً من أهل البلاد المفتوحة فضلوا المسلمين على أهل دينهم أو ملتهم، والشواهد كثيرة، من ذلك أنه لما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن، وعسكر أبو عبيدة في بلدة (فحل)، كتب الأهالي النصارى في تلك البلاد إلى العرب الفاتحين يقولون: يا معشر المسلمين! أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، وأنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا.^(٢)

ولما جمع هرقل للمسلمين الجموع في اليرموك، رد أبو عبيدة على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا: شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم. فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم. ونهض اليهود فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص، إلا أن نُغلب ونُجهد. فأغلقوا الأبواب وحرسوها. وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود، وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه، وإلا فإننا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد.^(٣)

(١) واقعنا المعاصر. محمد قطب، (٦٩). وقد شهد بزييف تلك الشعارات الأسقف (ميخائيل السرياني)، قال: لم يسمح الإمبراطور الروماني لكنيستنا بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنايس التي نُهبَت ولهذا فقد انتقم الرب منه، لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا أبناء إساعيل لينقذونا من أذى الرومان، وتركنا العرب نارس عقائدنا بحرية وعشنا في سلام. الإسلام في عيون غربية، د. محمد عمارة (ص ١٧) نقلاً من كتاب تاريخ مصر في العصر البيزنطي، د. صبري أبو الخير سليم. (ص ٦٢).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر، (١٣٠/٤١).

(٣) فتوح البلدان، (١٦٢/١).

والفضل ما شهد به الأعداء؛ حيث اعترف المنصفون بساحة الإسلام، من ذلك شهادة المفكر الفرنسي، (غوستاف لوبون): ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب.^(١) وما قاله المستشرق ول ديورانت: لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام.^(٢) وقالت السيدة زيجريد هونكه: إن الإسلام هو لا شك أعظم ديانة على ظهر على الأرض سماحة وإنصافاً، نقولها بلا تحيز، ودون أن نسمح للأحكام الظالمة أن تلتطخه بالسواد إذا ما نحينا هذه المغالطات التاريخية الآثمة في حقه، وإن علينا أن نتقبل هذا الشريك والصديق، مع ضمان حقه في أن يكون كما هو.^(٣)

(١) وقال أيضاً: وإن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين، فهم الذين علّموا الشعوب النصرانية وإن شئت فقل حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أضمن صفات الإنسان... ولقد كانت أخلاق المسلمين في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيراً من أخلاق أمم الأرض قاطبة... والسهولة العجيبة التي يتشربها القرآن في العالم... فالمسلم أينما مر ترك خلفه دينه وبلغ عدد أشياع النبي ملايين كثيرة في البلاد التي دخلها العرب بقصد التجارة لا فاتحين، كبعض أجزاء الصين وأفريقيا الوسطى وروسية وتم اعتناق هذه الملايين للإسلام طوعاً، لا كرهاً ولم يسمع أن الضرورة قضت بإرسال جيوش مع هؤلاء التجار العرب المسلمين لمساعدتهم ويتسع نطاق الإسلام بعد أن يقيمه هؤلاء في أي مكان كان. حضارة العرب (٢٦-٧٣-٢٧٦-٤٣٠-٥٦٦-٥٧٩).

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت، دار الجليل، بيروت، (١٣/١٣٠). وهذا عكس ما فعله الصليبيون عند احتلالهم العالم الإسلامي، وصف شاهد عيان إفرنجي المذبحة التي أحدثها الصليبيون بالقدس بقوله: شاهدنا أشياء عجيبة إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رمياً بالسهم أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج.. وكنا نرى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام. قصة الحضارة (٢٥/٤).

(٣) الله ليس كذلك، (ص ١٠١). وعقدت السيدة زيجريد هونكه مقارنة بين سماحة المسلمين وغدر الصليبيين، قالت: نذكر هنا الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد، الذي نشأ في الغرب تنشئة الملوك الشرفاء. فقد مرغ تلك السمعة الطيبة في العار، ودأب على تلويثها بشكلٍ مخزٍ دائماً أبداً، فبينما أقسم بشره لثلاثة آلاف أسير عربي أن حياتهم آمنة فإذا هو فجأة منقلب المزاج، فيأمر بذبحهم جميعاً، ويحذو قائد الجيش الفرنسي حذوه سريعاً. وهكذا لطح بفعلته النكراء وسفكه تلك الدماء سمعته إلى الأبد، وضيّع ثمرة انتصاره في أذيال الخزي والعار. وعلى العكس من هذا عرفنا صلاح الدين الذي أحزى قواد جيوش النصارى، فلم ينتقم قطُّ من أسراهم النصارى الذين كانوا تحت رحمته، رداً على خيانتهم وغدرهم وفضاعتهم الوحشية التي ليس لها حدٌّ. ولقد أخزاهم صلاح الدين مرةً أخرى حين تمكّن من استرداد بيت المقدس، التي كان الصليبيون قد انتزعوها من قبل بعد أن سفكوا دماء أهلها في مذبح لا تدانيها مذبحٌ وحشية وقسوة، فإنه لم يسفك دم سكاها من النصارى انتقاماً لسفك دم المسلمين، بل إنه شملهم بمروءته وأسبغ عليهم من جوده ورحمته، ضارباً المثل في التخلُّق بروح الفروسية العالية. على العكس من المسلمين لم تعرف الفروسية النصرانية أي التزام خلقي

الأساس الثالث، العدالة والمساواة:

من المبادئ التي جاء بها الإسلام تحقيق العدالة وإيجاد المساواة، مع الأصدقاء والأعداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة ٨٤]، حتى في ميدان المعركة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة ١٩٠]. والله ﷻ عاتب الرسول ﷺ حين دافع عن منافقين ظاناً إياهم صادقين في اعتقادهم وأقوالهم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ [النساء ١٠٥].^(١)

ولم يعمم الإسلام الحكم، فلم ينظر إلى الآخر نظرة واحدة، أو يضع الجميع في سلة واحدة: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران ١١٣]، وفيهم المؤمن: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران ١١٠]. ومنهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة ٨٣]، وفيهم المؤمن: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾ [آل عمران ٧٥]. والمقتصد: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة ٦٦]،

يفرض عليها أن تسمح لأولئك (الكفار) بممارسة حقوقهم الطبيعية، الأمر الذي يمليه حق الجوار ومحبته، كما شعرت تلك الفروسية النصرانية بأنه ليس لزاماً عليها أن تلتزم بكلمة الشرف التي تعطيها لغير النصراني. وحينما سفك فرسان الحملة الصليبية عام (١٢٠٤م) دم إخوانهم من النصراني في بيزنطة أخذ (نيكتاس أكوميناتوس) يبكي مصارعهم، قائلاً: بل إن محاربي المسلمين الأعداء أنفسهم رحماء طيبون قياساً إلى أولئك القوم، الذين يحملون صلب المسيح على ظهورهم. والحق أن الفروق الحاسمة مع أتباع الملة الأخرى راسخة في تفهم كل من الإسلام والنصرانية لطبيعته وفي اختلاف تفهم كل منهما للبشر. المرجع نفسه، (ص ٣٤-٣٥).

(١) هذه الحادثة بالغة الدلالة على مدى ثبات المبادئ التي جاء بها الإسلام، وعدم التوائها أو خضوعها للظروف، ففي حين كان اليهود يتربصون بنبي الإسلام ﷺ وأهله الدوائر؛ لأن نبي آخر الزمان لم يكن منهم، حيث أثاروا الفتن وحاكوا المؤامرات... وفي غمرة هذا الجو المتوتر سرق أحد المنافقين متاعاً، وكى يتخلص من جريرة فعله ويوقع فيها غيره، أخفاه عند يهودي، وعناصر الجريمة مكتملة، متاع يعثر عليه في بيت الرجل، قومه يجاهرون بالعداء للإسلام، مع شهادة رجل ظن الرسول ﷺ أنه مسلم حقيقة، فليس من سبيل أمام قاض اكتملت البيّنات عنده إلا أن يحكم وفقها، وهكذا فعل رسول الله ﷺ؛ لأنه بشر لا يعلم الغيب، فنزل الوحي ليبين براءة اليهودي. انظر واقعنا المعاصر. محمد قطب. (٦٧).

وكثير منهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة ١٠٩].

سمات العدالة في الإسلام:

تتسم العدالة التي دعا إليها الإسلام وأمر بتطبيقها، بالثبات والشمول، فلا تخضع لاعتبارات مصلحة أو ظروف آنية، بل هي دائمة لا تتغير ولا تتبدل، فأمر الله ﷻ بالوفاء بالعهود، حتى مع الأعداء: قال تعالى: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ [النساء ٥٨].^(١) وقد أعاد الرسول ﷺ أبا جندل إلى المشركين وفاء بها عاهد عليه المشركين.^(٢)

وحرمة الغدر والخيانة، حتى في ميدان المعركة، قال سُلَيْم بن عَامِرٍ: كان مُعَاوِيَةَ يَسِيرُ بِأَرْضِ الرُّومِ وكان بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ أَمَدٌ فَأَرَادَ أَنْ يَدْتُوَ مِنْهُمْ فَإِذَا انْقَضَى الْأَمَدُ غَزَاهُمْ فَإِذَا شَيْخٌ عَلَى دَابَّةٍ يَقُولُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ وَفَاءٌ لَا غَدْرٌ إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قال: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقده ولا يشدها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء». فبلغ ذلك مُعَاوِيَةَ فَرَجَعَ وَإِذَا الشَّيْخُ عَمْرُو بن عَبْسَةَ.^(٣) والغاية لا تبرر الوسيلة.^(٤) فلا يجوز قتال قوم إلا بعد دعوتهم إلى إحدى ثلاث خلال.^(١) ولا يقبل التهاون أو التعدي في تطبيق تلك خلال.^(٢)

(١) يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم «خِيَانَةً» أي: نقضًا لما بينك وبينهم من الموائيق والعهود، «فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ» أي: عهدهم «عَلَى سَوَاءٍ» أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك. تفسير ابن كثير، (٧٩/٤).

(٢) قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «صَالِحَ النَّبِيِّ ﷺ الْمَشْرِكِينَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ عَلَى أَنْ مَنْ آتَاهُ مِنَ الْمَشْرِكِينَ رَدَّهُ إِلَيْهِمْ وَمَنْ آتَاهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَرُدُّوهُ وَعَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا مِنْ قَابِلٍ وَيُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلْبَانِ السَّلَاحِ السَّيْفِ وَالْقَوْسِ وَنَحْوِهِ فَجَاءَ أَبُو جَنْدَلٍ يَحْجُلُ فِي فَيْوَدِهِ فَرَدَّهُ إِلَيْهِمْ». البخاري، كتاب الصلح، باب الصلح مع المشركين، (٢٥٥٣)(٢/٩٦١).

(٣) المسند، (١٧٠٥٦) (٤/١١١)، الترمذي، وقال حسن صحيح، كتاب السير، باب ما جاء في الغدر. (١٥٠٦). سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب الإمام يكون بينه وبين العدو (٢٣٨٧).

(٤) خير شاهد على ذلك، ما حدث مع أهل سمرقند؛ حيث شكوا أن قتيبة قائد جيش المسلمين، غدر بهم وظلمهم وأخذ بلادهم غيلة، فحين بلغ الخبر عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمر قاضي المسلمين في النظر القضية، فحكم القاضي بخروج جيش المسلمين لمخالفته أديبات الحرب وأخلاقه، فما كان من أهل سمرقند، بعد أن لا قوا الأمان والأمن من جند المسلمين، إلا أن يقرروهم على ما هم عليه. تاريخ الرسل والملوك، (٨١/٤) الكامل في التاريخ، (٣٧٠/٢).

وهي شاملة للجميع، دون تمييز بسبب دين أو عرق أو لون: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء ٥٨]، قال ميمون بن مهران ثلاثة يؤدين إلى البر والفاجر: الأمانة والعهد وصلة الرحم. (٣) وقصة زيد بن سَعْنَةَ دليل بين على العدالة مع رعايا الدولة غير المسلمين وحسن معاملتهم. (٤) ومن أشهر تطبيقات العدالة مع الرعايا غير المسلمين، قصة قبطي مصر. (١)

(١) عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ أَنَّ جَيْشًا مِنْ جِيُوشِ الْمُسْلِمِينَ كَانَ أَمِيرَهُمْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيَّ حَاصِرُوا فَارِسًا مِنْ قُصُورِ فَارِسَ فَقَالُوا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَلَا نَنْهَدُ إِلَيْهِمْ؟ قَالَ: دَعُونِي أَدْعُهُمْ كَمَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُوهُمْ، فَأَتَاهُمْ سَلْمَانُ فَقَالَ لَهُمْ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ فَارِسِي تَرُونَ الْعَرَبَ يُطِيعُونَنِي فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ فَلَكُمْ مِثْلَ الَّذِي لَنَا وَعَلَيْكُمْ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْنَا وَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا دِينَكُمْ تَرَكَانَا عَلَيْهِ وَأَعْطَوْنَا الْجُزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ.... وَإِنْ أَبَيْتُمْ نَابِدْنَاكُمْ عَلَى سَوَاءٍ قَالُوا مَا نَحْنُ بِالَّذِي نُعْطِي الْجُزْيَةَ وَلَكِنَّا نَفَاتِلِكُمْ.... فَدَعَاهُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَى مِثْلِ هَذَا ثُمَّ قَالَ امْهَدُوا إِلَيْهِمْ قَالَ فَهَدَانَا إِلَيْهِمْ فَفَتَحْنَا ذَلِكَ الْقَصْرَ. الترمذي، كتاب السير، باب مَا جَاءَ فِي الدَّعْوَةِ قَبْلَ الْقِتَالِ، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ، (١٤٦٨). المسند (٢٢٦١٠).

(٢) بخلاف ما فعله الروم سابقاً وما فعله أحفادهم في العصر الحاضر مما يندى له جبين من فيه أدنى حياء، لكن القوم فقدوا بوصلة الرشد في القيم والمبادئ.

(٣) مفاتيح الغيب، (١١٢/١٠).

(٤) قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: إِنَّ اللَّهَ لَمَّا أَرَادَ هُدَى زَيْدِ بْنِ سَعْنَةَ، قَالَ زَيْدٌ: مَا مِنْ عِلَامَاتِ النَّبُوَّةِ شَيْءٌ إِلَّا وَقَدْ عَرَفْتَهَا فِي وَجْهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ إِلَّا ائْتَنَنْتَ لَمْ أَحْبِرْهُمَا مِنْهُ، يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ وَلَا تَزِيدُ شِدَّةَ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا، فَكُنْتُ أَلْطَفُ لَهُ لِأَنَّهُ أَخَالَطُهُ، فَأَعْرِفَ حِلْمَهُ مِنْ جَهْلِهِ. قَالَ زَيْدٌ بْنُ سَعْنَةَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا مِنَ الْحُجْرَاتِ وَمَعَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ كَالْبَدَوِيِّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَصْرَى قَرِيَةَ بَنِي فُلَانٍ قَدْ أَسْلَمُوا، وَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ، وَكُنْتُ حَدَّثْتَهُمْ إِنْ أَسْلَمُوا أَتَاهُمْ الرِّزْقُ رَغَدًا، وَقَدْ أَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ وَشِدَّةٌ وَقُحُوطٌ مِنَ الْعَيْثِ، فَأَنَا أَخْشَى يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْإِسْلَامِ طَمَعًا كَمَا دَخَلُوا فِيهِ طَمَعًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُرْسِلَ إِلَيْهِمْ بَشِيرًا تُعِينُهُمْ بِهِ فَعَلْتُ، فَنَظَرْتُ إِلَى رَجُلٍ إِلَى جَانِبِهِ أَرَاهُ عَلِيًّا ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بَقِيَ مِنْهُ شَيْءٌ، قَالَ زَيْدٌ بْنُ سَعْنَةَ: فَدَنَوْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ لَكَ أَنْ تَبْعِنِي تَمْرًا مَعْلُومًا مِنْ حَائِطِ بَنِي فُلَانٍ إِلَى أَجْلِ كَذَا وَكَذَا؟... فَقَالَ زَيْدٌ بْنُ سَعْنَةَ: فَلَمَّا كَانَ قَبْلَ حُلِّ الْأَجْلِ بِيَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ، أَتَيْتُهُ فَأَخَذْتُ بِمَجَامِعِ فَمَيْصِهِ وَرَدَّاهُ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بِوَجْهِ عَلِيٍّ، فَقُلْتُ لَهُ: أَلَا تَقْضِيَنِي يَا مُحَمَّدُ حَقِّي؟ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُمْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَطْلًا، وَلَقَدْ كَانَ لِي بِمَخَالَطَتِكُمْ عِلْمٌ، وَنَظَرْتُ إِلَى عُمَرَ، وَإِذَا عَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي وَجْهِهِ كَالْفَلَكِ الْمُسْتَدِيرِ، ثُمَّ رَمَانِي بِبَصْرِهِ، فَقَالَ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَتَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَسْمَعُ، وَتَصْنَعُ بِهِ مَا أَرَى، فَوَالَّذِي بَعْتُهُ بِالْحَقِّ لَوْلَا مَا أَحَاذِرُ قُوَّتَهُ لَضَرَبْتُ بِسَيْفِي رَأْسَكَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى عُمَرَ فِي سُكُونٍ وَتَوَدُّةٍ، ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ، أَنَا وَهُوَ كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ هَذَا، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الْأَدَاءِ، وَتَأْمُرُهُ بِحُسْنِ التَّبَاعَةِ، أَذْهَبَ بِهِ يَا عُمَرُ وَأَعْطَاهُ حَقَّهُ وَزَدَهُ عَشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ مَكَانَ مَا رَوَعْتَهُ، قَالَ زَيْدٌ: فَذَهَبَ بِي عُمَرُ ﷺ، فَأَعْطَانِي حَقِّي، وَزَادَنِي عَشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الزِّيَادَةُ يَا عُمَرُ؟ فَقَالَ: أَمْرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَزِيدَكَ مَكَانَ مَا رَوَعْتِكَ، قُلْتُ: وَتَعْرِفُنِي يَا عُمَرُ؟ قَالَ: لَا، مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: أَنَا زَيْدٌ بْنُ سَعْنَةَ، قَالَ: الْحَبْرُ، قُلْتُ: الْحَبْرُ، قَالَ: فَمَا دَعَاكَ أَنْ

ولا أدل على تحقيق المساواة بين الجميع، من شمول ما يعرف بالضمان الاجتماعي للرعايا غير المسلمين؛ إنصافاً لهم، وحفظاً لإنسانيتهم، من ذلك، أن عمر رضي الله عنه مرَّ بِبَابِ قَوْمٍ وَعَلَيْهِ شَيْخٌ يَهُودِيٌّ يَسْأَلُ، وكان كبير السن ضريّر البصر،، قال: فما الجأك إلي ما أرى؟ قال: الجزية والحاجة والسِّنُّ. قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرَضَخَ لَهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الْمُنْزَلِ. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى خَازِنِ بَيْتِ الْمَالِ؛ فَقَالَ: انظر هذا وضرباه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم. كما أمر أن من لم يطق الجزية خففوا عنه، ومن عجز فأعينوه. (٢)

وقد جاء في كتاب خالد بن الوليد رضي الله عنه لأهل الحيرة: وأيا شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام. (٣)

فَعَلَتَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا فَعَلْتَ وَقُلْتَ لَهُ مَا قُلْتَ؟ قُلْتُ: يَا عُمَرُ، لَمْ تَكُنْ مِنْ عِلْمَاتِ النَّبِيِّ... فَأَشْهَدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي قَدْ رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَأَشْهَدُكَ أَنَّ شَطْرَ مَا لِي وَإِنِّي أَكْثَرُهَا مَا لَا صَدَقَةَ عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ... فَوَجَعَ عُمَرُ وَرِيدَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ زَيْدٌ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. وَأَمَّنْ بِهِ وَصَدَقَهُ وَبَايَعَهُ وَشَهِدَ مَعَهُ مَشَاهِدَ كَثِيرَةً، ثُمَّ تُوفِّي زَيْدٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدِيرٍ». المستدرک على المستدرک على الصحيحین. (٦٥٤٧). (٧٠٠/٣)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو من غرر الحديث. المعجم الكبير للطبراني (٥١٤٧) (٢٢٢/٥). وقال الهيثمي: رجاله ثقات مجمع الزوائد (٢٤٠/٨).

(١) حيث أمر الفاروق رضي الله عنه بالقصاص وأعطى الرجل عصاه قائلاً له: اضرب ابن الأكرمين، ملتفتاً إلى واليه قائلاً المقولة التي ذاعت في الأفاق: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. والأمر العجيب أن القصاص من مسلم لمسلم، ولا من عربي لعربي فيقول الناس عدل، بل من قبطي لعربي ومن نصراني لمسلم. واقعنا المعاصر، (ص ٧٠).

(٢) الخراج لأبي يوسف، (ص ١٢٦)، الأموال، لأبي عبيد، (١٦٣/١)، تاريخ دمشق، (١٧٨/١). وقال عمر رضي الله عنه: الفقراء هم المسلمون، وهذا - أي السائل اليهودي - من المساكين من أهل الكتاب. الخراج، (ص ١٢٦). وروي عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾، هم زمني أهل الكتاب. تفسير القرطبي، (١٥١/٨)، وقال عكرمة: لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين، إنما المساكين مساكين أهل الكتاب. جامع البيان في تأويل القرآن، (٣٠٨/١٤).

(٣) الخراج، (ص ١٤٤). كما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عامله على البصرة عدي بن أرطاة: انظر من قبلك من أهل الذمة، من قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه. الأموال، (١٧٠/١).

قال القرافي: وأما ما أمر به من برهم ومن غير مودة باطنية فالرفق بضعيفهم وسدُّ خلة فقيرهم وإطعام جائعهم وإكساء عاريهم ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والدلّة واحتئال إذائهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفاً منا بهم لا خوفاً وتعتيماً والدعاء لهم بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم وحفظ غيبتهم إذا

الأساس الرابع، السلم العالمي:

يشكل السلم العالمي، الخارجي والداخلي جناحي طائر، وأي خلل يحدث في أحدهما يؤثر في الآخر، وقد عمل الإسلام على تحقيق السلم بشقيه؛ لتصفو الحياة من الأكدار.

السلم العالمي:

حمل الإسلام إلى العالم رسالة سلام، فحقق السلم، ونشر الأمن، وحض على العلم، ودعا إلى الفضيلة، وأقام حضارة، وبنى مدينة،^(١) فقد أمر الله ﷻ بالجنوح إلى السلم: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال ٦١]؛ لأن القتال ليس أمراً حسناً لذاته: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب ٢٥]. ولا مرغوباً فيه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة ٢١٦]، وإنما شرع لرد العدوان: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة ١٩٠]، ورفع الظلم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [الحج ٣٩-٤٠]، وإخماد الفتنة: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ [البقرة ١٩٣]. وما أرسل الرسول ﷺ إلا رحمة العالمين، فحينما مر سعد بن عبادة رضي الله عنه بأبي سفيان رضي الله عنه يوم فتح مكة، قال: اليوم يوم الملحمة اليوم

تَعَرَّضَ أَحَدٌ لِأَدْبَتِهِمْ وَصَوْنُ أَمْوَالِهِمْ وَعِيَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ وَجَمِيعِ حُقُوقِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ وَأَنْ يُعَانُوا عَلَى دَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُمْ وَإِيصَالِهِمْ لِجَمِيعِ حُقُوقِهِمْ. الفروق، (٢٩/٣).

(١) اعترف المنصفون بمدى إسهام المسلمين في التقدم العلمي والحضاري، ولم تكن الغاية قتل الشعوب، أو نهب الثروات، أو استعباد البشر، من ذلك ما قاله الكاتب الفرنسي (أناتول فرانس) في كتابه (الحياة الجميلة): أسوأ يوم في التاريخ هو يوم معركة (بواتيه) عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية أمام بربرية الفرنجة، ألا ليت شارل مارتل قطعت يده ولم ينتصر على القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي، إن انتصاره عليه أحر المدينة عدة قرون إلى الوراء. أجنحة المكر الثلاثة، (ص ١٦٥). وقال (هنري دي شاميون) تحت عنوان (الانتصار الهمجي على العرب): لولا انتصار جيش (شارل مارتل) الهمجي على العرب في فرنسا في معركة (تور) على القائد الإسلامي (عبد الرحمن الغافقي) لما وقعت فرنسا في ظلمات العصور الوسطى، ولما أصيبت بفظائعها ولما كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الديني، ولولا ذلك الانتصار البربري لنجت إسبانيا من وصمة محاكم التفتيش، ولما تأخر سير المدنية ثمانية قرون بينما كنا مثال الهمجية. كتاب دفاع عن الإسلام للمستشرقة الإيطالية (لورا فيشيا فاغليري). نقلاً من كتاب: قالوا عن نبي الإسلام والإسلام، (ص ٣٨).

تستحل الحرمه، اليوم أذل الله قريشاً، رد عليه رسول الله ﷺ: اليوم يوم المرحمة اليوم أعز الله فيه قريشاً. (١) كما قال لأهل مكة: اذهبوا فانتم طلقاء.

وأرسل الرسول ﷺ الرسل وبعث السفراء إلى ملوك وأمراء البلدان المجاورة؛ لإقامة علاقات حسن جوار، وأقام عهد أمان مع القبائل المسالمة، وقال عن حلف الفضول: «شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدَعَانَ حِلْفًا لَوْ دُعِيَتَ إِلَى مِثْلِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ»، (٢) واستقبل الوفود وهاجر عدد من أصحابه إلى الحبشة لما علمه من عدالة النجاشي، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِذَا بَعَثَ جِيُوشَهُ قَالَ: «اُخْرُجُوا بِسْمِ اللَّهِ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ لَا تَغْدِرُوا وَلَا تَغْلُوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقْتُلُوا الْوَالِدَانَ وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ». (٣) ولم يتعرضوا لغير المقاتلين من النساء والأطفال والرهبان، فال

(١) كنز العمال، (٢٩٥/٧).

(٢) وَسُمِّيَ بِهِ تَشْبِيهَا بِحِلْفِ كَانَ قَدِيمًا بِمَكَّةَ أَيَّامَ جُرْهُمِ عَلَى التَّنَاصُفِ وَالْأَخْذِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ وَاللَّغْرِيبِ مِنَ الْقَاطِنِ، قَامَ بِهِ رِجَالٌ مِنْ جُرْهُمِ كُلُّهُمْ يُسَمَّى الْفَضْلُ. النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ، (٨٧٨/٣). قَالَ الزَّهْرِيُّ: كَانَ شَأْنُ حِلْفِ الْفَضُولِ أَنَّ رِجَالًا مِنْ بَنِي زَيْدٍ قَدِمُوا مَكَّةَ مُعْتَمِرًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَمَعَهُ تِجَارَةٌ لَهُ فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ فَأَوَاهَا إِلَى بَيْتِهِ ثُمَّ تَغَيَّبَ، فَابْتَغَى الزَّيْدِيُّ مَتَاعَهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ فَجَاءَ إِلَى بَنِي سَهْمٍ يَسْتَعْدِيهِمْ عَلَيْهِ فَأَغْلَطُوا عَلَيْهِ... فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَشْرَفَ عَلَى أَبِي قَبِيْسٍ حِينَ أَخَذَتْ قُرَيْشٌ مَجَالِسَهَا ثُمَّ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ:

يَا آلَ فِهْرِ لِمَ ظَلُمْتُمْ بِضَاعَتَهُ ... بِيْطْنِ مَكَّةَ نَائِي الْأَهْلِ وَالنَّفْرِ
وَمَحْرَمٍ أَشْعَثَ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ ... أَمْسَى يُنَاشِدُ حَوْلَ الْحِجْرِ وَالْحَجْرِ
هَلْ خُفِرَ مِنْ بَنِي سَهْمٍ يَقُولُ هُمْ هَلْ كَانَ فِينَا حَالًا مَالٌ مُعْتَمِرٍ
إِنَّ الْحَرَامَ لَمَنْ تَمَّتْ حَرَامَتُهُ ... وَلَا حَرَامَ لِثَوْبِ الْفَاجِرِ الْغَدْرِ

فأعظمت قريش ذلك، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان وصنع لهم يومئذ طعاماً كثيراً وكان رسول الله ﷺ يومئذ معهم قبل أن يوحى إليه وهو ابن خمس وعشرين سنة فاجتمعت بنو هاشم وأسد وزهرة وتيمم وكان الذي تعاهد عليه القوم وتحالفوا: أن لا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه ويردوا إليه مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم. أخبار مكة للفاكهي، (١٩٠-١٩١)، شرح مشكل الآثار، (٢١٩/١٥).

(٣) المسند، عن ابن عباس رضيه الله عنه، (٢٧٢٨) (٤٦١/٤). مسند أبي يعلى الموصلي (٢٥٤٩) (٤٢٢/٤)، قال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري والطبراني في الكبير والأوسط إلا أنه قال فيه: «ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ولا شيخًا»، وفي رجال البزار: إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة، وثقه أحمد وضعفه الجمهور، وبقية رجال البزار رجال الصحيح.. مجمع الزوائد، (٣٨١/٥).

ديورانت: لم يكونوا في حروبهم همجاً متوحشين، انظر إلى ما أوصاهم به أبو بكر رضي الله عنه،^(١) ولم يُشْرَع الإسلام حرب إبادة، أو اتباع سياسة الأرض المحروقة،^(٢) بل الأمر عكس ذلك تماماً، فقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله بأهل مصر، قال: «إِذَا فُتِحَتْ مِصْرُ فَاسْتَوْصُوا بِالْقَبِطِ خَيْراً فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا»، يعني أن أم إسماعيل كانت منهم.^(٣) وسمى القرآن الكريم الصلح فتحاً: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ [الفتح ١] فبعد أن قفل المسلمون من صلح الحديبية نزلت سُورَةُ الْفَتْحِ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْفَتْحَ هُوَ؟ قَالَ نَعَمْ فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ. «^(٤) قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رضي الله عنه: «تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ».^(٥) ولا يهدف الإسلام إلى إقامة عداوة أو الاستمرار فيها. قال صلى الله عليه وآله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ

(١) قصة الحضارة، (٢٢/٤١٨). كانت وصية أبي بكر رضي الله عنه لجيش أسامة رضي الله عنه: يا أيها الناس قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني: لا تحونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرن بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. تاريخ الأمم والملوك، (٢/٢٤٦).

(٢) هذا بخلاف ما سُرع في الكتاب المقدس؛ فأهل الشعوب البعيدة التي يصعب عليهم سكتها، تسمى نساؤهم وذرياتهم وأموالهم، أما أهل الشعوب القريبة، فيبادوا جميعاً، جاء في الإصحاح العشرين من سفر التثنية: وإذا تقدمت إلى مدينة لتقاتلها فادعها أولاً إلى السلم، فإذا أجابتك إلى السلم وفتحت لك فجميع الشعب الذين فيها يكونون لك تحت الجزية ويتعدون لك، وإن لم تسلمك بل حاربتك فحاصرتُها، وأسلمها الرب إلهك إلى يدك فاضرب كل ذكّرٍ بحدّ السيف، وأما النساء والأطفال وذوات الأربع وجميع ما في المدينة من غنيمة فاغتنمها لنفسك، وكلّ غنيمة أعدائك التي أعطاكها الرب إلهك هكذا تصنع بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن أولئك الأمم هنا. وأما مدن أولئك الأمم التي يعطيها لك الرب إلهك ميراثاً فلا تستبقي منها نسمة، بل أيسلمهم يسالاً. (١) سفر التثنية، (٢٠/١٠ - ١٧)، وانظر: موسوعة الكتاب المقدس، (١/٣٣٢).

(٣) عن كعب بن مالك، المستدرک، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجا، ووافقه الذهبي، (٤/١٤٩). المعجم الكبير الطبراني (١١١) (١٩/٦١). وقال الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح. مجمع الزوائد، (١٠/١).

(٤) البخاري، كتاب الخمس باب إثم من عاهد ثم غدر، (٣٠١١)، مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية. (٤٧٣٣) (٥/١٧٥).

(٥) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، (٤/١٥٢٥) (٣٩١٩). وقال جابر رضي الله عنه: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية. تفسير الطبري، (٢٠٢/٢٢). وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية. تفسير ابن كثير، (٧/٣٢٥). وقال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير. كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي، (١/٤٦٧).

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [المتحنة ٧]. كما أنه لم يعلن حرباً دائمة إلا على الشيطان: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر ٦]، أما غيره، فربما غدا أعداء الأمس أصدقاء اليوم: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾. ولم يسع إلى احتلال البلاد ونهب الثروات وطرده أهلها. (١)

ولم توجه حروب المسلمين إلى الشعوب، بل إلى قوى القهر، دفعاً للظلم: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾، (٢) وإزالة للطواغيت: (٣) ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. (٤) خاصة القياصرة

(١) وعندما صالح أبو عبيدة أهل بعلبك اشترطوا أن لا يدخل مدينتهم أحد من المسلمين، وأن يقيم عامل أبي عبيدة خارج المدينة، فقال أبو عبيدة ﷺ: لكم ذلك وما لنا في الدخول إلى مدينتكم من حاجة. فتوح الشام، (١/١٤٣).

(٢) جهز رسول الله ﷺ جيش أسامة بن زيد ﷺ قبيل وفاته للذهاب إلى جموع الروم في تخوم الشام؛ لأنهم كانوا يتأهبون للانتقاص على المسلمين واستئصال شأفتهم، حيث أنفذه الخليفة الراشد أبو بكر ﷺ بعد نوليته الخلافة. ومجموع ضحايا غزوات النبوة من الجانبين بلغت (٣٨٦) (١٨٣) من المسلمين، و(٢٠٣) من المشركين. بينما بلغت ضحايا الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، عشرة ملايين الإسلام في عيون غربية، (ص ١٦).

(٣) بما أن الخطاب الإلهي في الإسلام موجه إلى البشر جميعاً، كان من حق البشرية أن تبلغها الدعوة إلى هذا المنهج الإلهي، وألا تقف عقبة أو سلطة في وجه التبليغ بأي حال من الأحوال. ثم كان من حق البشرية كذلك أن يترك الناس بعد وصول الدعوة إليهم أحراراً في اعتناق هذا الدين؛ لا تصدهم عن اعتناقه عقبة أو سلطة. فإذا أبقى فريق منهم أن يعتنقه بعد البيان، لم يكن له أن يصد الدعوة عن المضي في طريقها. وكان عليه أن يعطي من العهود ما يكفل لها الحرية والاطمئنان؛ وما يضمن للجماعة المسلمة المضي في طريق التبليغ بلا عدوان، فإذا اعتنقها من هداهم الله إليها كان من حقهم ألا يفتنوا عنها بأي وسيلة من وسائل الفتنة، لا بالأذى ولا بالإغراء، ولا بإقامة أوضاع من شأنها صد الناس عن الهدى وتوحيقهم عن الاستجابة. وكان من واجب الجماعة المسلمة أن تدفع عنهم بالقوة من يتعرض لهم بالأذى والفتنة. ضماناً لحرية العقيدة، وكفالة لأمن الذين هداهم الله، وإقراراً لمنهج الله في الحياة، وحماية للبشرية من الحرمان من ذلك الخير العام. في ظلال القرآن. (١/١٦٠).

(٤) قال مجاهد: "فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين" يقول: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم. تفسير الطبري. (٣/٥٧٤). أما قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة ٢٩]. فهو خاص بالمحاربين لدار الإسلام من أهل الكتاب، وليس ينصرف إلى المقيمين في الوطن الإسلامي. شبهات حول الإسلام، محمد قطب، (ص ١٧٧). قال الشيخ الشعراوي، تعني أن يؤديها عن إنكسار لا عن علو. التفسير، (١/١٢٥).

والأكاسرة؛ لتحقيق مبدأ حرية الاختيار لمن تبلغه رسالة الإسلام.^(١) ولم يشن المسلمون حروباً دينية مقدسة لنشر الدين بالقوة أو قهر المخالفين، بل أكثر البلاد الإسلامية لم تدخلها جيوش المسلمين، ولم يقاتل المسلمون إلا للدفاع عن النفس أو حرية الاعتقاد أو الاختيار، ولم يسجل التاريخ استعمال القوة أو الإكراه في اعتناق الإسلام.^(٢) وإن كثيراً من أهالي البلاد المفتوحة رحبوا بالفاتحين وناصروهم،^(٣) قال شاهد العيان على الفتح الإسلامي لمصر، الأسقف (يوحنا النقيوس): إن الله الذي يصون الحق، لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين - العرب المسلمين - ثم نهض المسلمون وحازوا كل مصر وكان هرقل حزيناً بسبب هزيمة جيوشه في مصر، وكان عمرو بن العاص يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها ولم يأخذ شيئاً من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئاً ما من سلب أو نهب وحافظ على الكنائس طوال الأيام.^(٤) وقد شكلت مبادئ الإسلام وأخلاق المسلمين، عامل جذب لاعتناق الإسلام، قال

(١) ومما يدل على نبل مقصد رسالة الإسلام وصدقها، أن بيان ذلك جاء على لسان جندي مغمور لم يعرف إلا من خلال ما أجاب به رستم قائد جيش الفرس في القادسية، وهو ربيعي بن عامر، وقد سأله: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب الله ﷻ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه. تاريخ الأمم والملوك للطبري، (٤٠١/٢).

(٢) قال توماس أرنولد: لكننا لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام طوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند وإيزابيلا دين الإسلام من إسبانيا أو التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستنتي مذهباً يعاقب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن انكلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة، وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد اعتزلت انعزلاً تاماً عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحاء أحد يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين؛ ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت به سياسية الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم. الدعوة إلى الإسلام، (ص ٩٩).

(٣) ذهب المؤرخ الأسباني: إجناسيو أولاجي في كتابه، (العرب لم يستعمروا أسبانيا): إلى أن المسلمين دخلوا أسبانيا بناء على دعوة من الأسبان لما رأوا تسامح المسلمين في شمال إفريقيا مقابل الظلم والتعصب الذي كانوا يعانون منه في عهد الملك (رودريك). هامش (الله ليس كذلك، ص ٤٩).

(٤) الإسلام في عيون غربية، (ص ١٦)، نقلاً من كتاب تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي (ص ٢٠١ و ٢٢١).

أرنولد، تحت عنوان طابع السيادة في الحضارة الإسلامية: كان المثل الأعلى الذي يهدف إلى أخوة المؤمنين كافة في الإسلام من العوامل القوية التي جذبت الناس بقوة نحو هذه العقيدة.^(١)

أما مقولة: أن الإسلام انتشر بحد السيف، ما هي إلا فرية روجها من غاظه انتصار الإسلام، أما المنصفون فقالوا عكس ذلك، قال توماس أرنولد، تحت عنوان، أسباب تحول المسيحيين إلى الإسلام: وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام، بعيد من التصديق، ومن ثم لم يكن بد من أن نلتمس بواعث أخرى غير ذلك الباعث الذي أوحى بالاضطهاد.^(٢) وقال ول ديورانت: لم يكن الأعداء يخشون بين الإسلام والسيف، بل كان الخيار بين الإسلام والجزية والسيف.^(٣)

(١) المرجع نفسه، (ص ٩٤). قالت زجريد هونكه: لقد كان أتباع الملل الأخرى - وبطبيعة الحال من النصارى واليهود - هم الذين سعوا سعياً لا اعتناق الإسلام والأخذ بحضارة الفاتحين، حتى افتتنوا بها وشغفوا بحبها فتمسوا بأسماء عربية ولبسوا لباساً عربياً وتعلموا اللسان العربي... لقد كانت الروعة الكاملة في أسلوب الحياة العربية والتمدن العربي، والسمو والمروءة والجمال، وباختصار: السحر الأصيل الذي تتميز به الحضارة العربية بغض النظر عن الكرم العربي والتسامح وسهاحة النفس كانت هذه كلها قوة جذب لا تقاوم. لقد ساء ذلك الآباء الروحيين النصارى فقد شهود عيان في الأندلس، لقوة جذب المد الروحي والفكري العربي الذي سقط ضحيته رعاياهم النصارى طوعاً وعن طيب خاطر يشهد بذلك أسقف قرطبة (ألكارو) الذي أخذ يجار بشكواه بكلمات مؤثرة: (إن كثيراً من أبناء ديني يقرؤون أساطير العرب ويتدارسون كتابات المسلمين من الفلاسفة وعلماء الدين، ليس ليدهضوها، وإنما ليتقنوا اللغة العربية ويحسنوا التوسل بها... وأين نقع اليوم على النصراني - من غير المتخصصين - الذي يقرأ التفاسير اللاتينية للإنجيل، بل من الذي يدرس منهم حتى الأناجيل الأربعة؟. الله ليس كذلك، (ص ٤١).

(٢) الدعوة إلى الإسلام، (ص ٨٨). قال ابن القيم: وإنما دخل الناس في دينه ﷺ اختياراً؛ لما تبين لهم أنه رسول الله حقاً، فأهل اليمن كانوا على دين اليهودية أو أكثرهم، كما قال ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب»، وكذلك من أسلم من يهود المدينة وهم جماعة كثيرون، لم يسلموا رغبة في الدنيا ولا رهبة من السيف، بل أسلموا في حال حاجة المسلمين وكثرة أعدائهم، فكان أحدهم يعادي أباه وأمه، ويخرج من الدنيا رغبة في الإسلام لا لرياسة ولا مال بل يتخلع من الرياسة والمال ويتحمل أذى الكفار. هداية الحيارى، بتصرف يسير، (ص ١٢-١٣).

(٣) قصة الحضارة، (٤١٨/٢٢).

السلم الداخلي:

إن تحقق السلم الداخلي ضماناً لتحقيق السلم الخارجي، فالدولة التي لا تقيم العدل بين رعاياها آيلة إلى السقوط، فكل من له عقد ذمة^(١) أو عهد أمان، حقه مكفول،^(٢) وقد دعا القرآن الكريم إلى مخاطبتهم بأحب الأسماء إليهم؛ لتأليفهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران ٦٤]،^(٣) وأمر بمجادلتهم بالتي هي أحسن، مع البدء بذكر المشتركات: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِهْنَأْ وَإِهْكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت ٤٦]. وكان الرسول ﷺ يجب موافقة أهل الكتاب ومخالفة المشركين فيما لم يؤمر به.^(٤) وفرح المسلمون بانتصار أهل الكتاب على أهل الشرك.^(٥)

(١) اصطلاح أهل الذمة ليس عاراً ينبغي التخلص منه، فهو من جنس العهد والعقد، وقولهم هذا في ذمة فلان أي في عهده وعقده أي فألزمه بالعقد والميثاق. أحكام أهل الذمة. (٨٧٣/٢). وتفسر الذمة بالعهد وبالأمان وسمي المعاهد ذمياً نسبة إلى الذمة بمعنى العهد. المصباح المنير، (٢١٠/١).

(٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِداً لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوَجَّدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا». البخاري، كتاب الخمس، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم. (٢٩٩٥) (١١٥٥/٣). قال الطحاوي: فَإِذَا صَارَ ذَمِيًّا حَرَّمَ دَمُهُ وَمَالُهُ كَحَرَمَةِ دَمِ الْمُسْلِمِ وَمَالِ الْمُسْلِمِ. ثُمَّ رَأَيْنَا مَنْ سَرَقَ مِنْ مَالِ الذَّمِيِّ مَا يَجِبُ فِيهِ الْقَطْعُ، قُطِعَ كَمَا يُقْطَعُ فِي مَالِ الْمُسْلِمِ. شرح معاني الآثار، (١٩٥/٣).

(٣) قال الفخر الرازي: خاطبهم ههنا بقوله تعالى: (يا أهل الكتاب)، وهذا الاسم من أحسن الأسماء وأكمل الألقاب حيث جعلهم أهلاً لكتاب الله، فإن هذا اللقب يدل على أن قائله أراد المبالغة في تعظيم المخاطب وفي تطيب قلبه، وذلك إنما يقال عند عدول الإنسان مع خصمه عن طريقة اللجاج والنزاع إلى طريقة طلب الإنصاف. أما قوله تعالى: (إلى كلمة سواء بيننا)، فالمعنى هلموا إلى كلمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض، لا ميل فيه لأحد على صاحبه، والسواء هو العدل والإنصاف. تفسير الرازي، (٢٤٦/٤).

(٤) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَسْدِلُ شَعْرَهُ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْرُقُونَ رُءُوسَهُمْ وَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَسْدِلُونَ رُءُوسَهُمْ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ بِشَيْءٍ ثُمَّ فَرَّقَ النَّبِيُّ ﷺ رَأْسَهُ». البخاري، كتاب المناقب باب صفة النبي ﷺ، (٣٣٦٥) (١٣٠٥/٣). مسلم كتاب الفضائل، باب في سدل النبي ﷺ شعر رأسه إلى جانبه، (٢٣٣٦) (١٨١٧/٤).

(٥) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَمْ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾، قَالَ غُلِبَتْ وَغَلِبَتْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُجِبُونَ أَنْ يَظْهَرَ أَهْلُ فَارِسَ عَلَى الرُّومِ لِأَنَّهُمْ وَإِنَّا هُمْ أَهْلُ الْأَوْثَانِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُجِبُونَ أَنْ يَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ...». الترمذي، كتاب تفسير القرآن الكريم، باب ومن سورة الروم، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ (٣١٩٣) (٣٤٣/٥)، المسند، (٢٤٩٥) (٢٩٦/٤).

ولم ينه القرآن الكريم إلا عن مودة المحاربين: ﴿لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة ٨].^(١)

إلا أنه قد تثار شبهة، أن فرض الجزية على الرعايا غير المسلمين مكس مشين، وذل مكين. وجوابها، ما شهد به شاهد من أهلهم، قال السير توماس أرنولد تحت عنوان، الغرض من فرض الجزية وعلى من فرضت: لم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين - كما يريدنا بعض الباحثين على الظن - لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة. وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين. ولما قَدَّمَ أهل الحيرة المال المتفق عليه، ذكروا صراحة أنهم دفعوا هذه الجزية على شريطة أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم.^(٢) كذلك حدث أن سجل خالد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة قوله: فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا.^(٣)

والواقع أصدق دليل: فبعد أن علم أبو عبيدة أن هرقل حشد جيشاً كبيراً لقتال المسلمين، كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم برد ما جُبي من الجزية من هذه المدن، وكتب إلى الناس يقول: (إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإننا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم). فلما قالوا ذلك لهم، وردوا عليهم الأموال التي جبوها منهم، قالوا: ردكم الله علينا، ونصركم عليهم، فلو كانوا هم، لم يردوا علينا شيئاً، وأخذوا كل شيء بقي لنا.^(٤) وقد فرضت الجزية على القادرين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التي كانوا يُطالبون بها

(١) عن عُرْوَةَ، قال: أَخْبَرْتَنِي أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «أَتَيْتَنِي أُمِّي رَاغِبَةً فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَصْلُهَا قَالَ نَعَمْ». قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا: ﴿لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾. البخاري، كتاب الأدب، باب صلة الوالد المشرك، (٥٦٣٣) (٥/٢٢٣٠).

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبري، (٣٢١/٢).

(٣) المرجع نفسه، (٣١٩/٢).

(٤) الخراج لأبي يوسف، (ص ١٣٩).

لو كانوا مسلمين، ومن الواضح أن أي جماعة مسيحية كانت تُعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي. وكانت الحال على هذا النحو مع قبيلة (الجراجمة) وهي مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية، سلمت المسلمين وتعهدت أن تكون عوناً لهم، وأن تقاتل معهم في مغازيهم، على شريطة ألا تؤخذ بالجزية، وأن تعطى نصيبها من الغنائم.^(١) ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس سنة (٢٢هـ)، أبرم مثل هذا الحلف مع إحدى القبائل التي تقيم على حدود تلك البلاد، وأعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية.^(٢)

الخاتمة:

في الوقت الذي يعرف الغرب عن أحوالنا الشيء الكثير، قبل الحملات العسكرية وفي أثنائها وبعد جلائهم، من خلال الإرساليات التبشيرية وما يقوم به المستشرقون، فلا يتخذوا أي قرار، بسلم أو حرب إلا بعد معرفة دقائق الأمور التي يجهلها أكثرنا، وقد دلت الحروب الأخيرة على مدى عمق معرفتهم بأدق التفاصيل التي تساعدهم في اكتساب المعركة، ولو كانت الوسائل غير مشروعة؛ لأن الغاية عندهم تبرر الوسيلة. وفي مقابل هذا جهلنا بهم يوازي معرفتهم بنا، فما نعرفه عنهم ما هو إلا عواطف وانفعالات وردود فعل آنية كجذوة نار لا تكاد تشتعل حتى تتمد، فلا يمكن التعامل مع الآخر في السلم أو الحرب إلا بعد الاطلاع على ما تكنه صدورهم وما تضمه نفوسهم تجاهنا؛ لهذا يتوجب على أصحاب القرار في العالم الإسلامي توجيه الطاقات للقيام بدراسات استغرابية واستشراقية، لمعرفة الآخر، مما يستدعي إقامة مراكز للترجمة والدراسات المستقبلية، وإرسال باحثين

(١) فتوح البلدان، (١٨٩/١).

(٢) الدعوة إلى الإسلام، (ص ٧٩). وقال آدم ميتز: كان أهل الذمة يدفعون الجزية، كل منهم بحسب قدرته، وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة الدفاع الوطني، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح، فلا يدفعها ذوو العاهات، ولا المترهبون، وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار. الحضارة الإسلامية (٩٦/١). والجزية ليست بدعاً من الأمر فرضه الإسلام، بل هي شرعة أقرها العهد القديم والجديد. موسوعة الكتاب المقدس (٣٨٢/١) (١٦٥/٤). ويذكر إنجيل متى أن عيسى عليه السلام سئل: أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا؟ فقال لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا لقيصر. فقال لهم: أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر، وما لله لله. موسوعة الكتاب المقدس، (١٧٤/٤).

ودعاة إلى مغرب العالم ومشرقه؛ لإيصال رسالة الإسلام في نشر السلم وتحقيق العدالة، فالناس أعداء لما جهلوا، والاطلاع على ثقافات الشعوب؛ لجلب المصالح ودفع المضار.

المراجع:

- الإسلام في عيون غربية، د. محمد عمارة، دار الشروق، ط/١/، (١٤٢٥-٢٠٠٥).
- أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط/٨/، دار القلم، دمشق.
- أحكام القرآن، أبو بكر الجصاص، دار الفكر، دمشق.
- أحكام أهل الذمة، لابن القيم، دار ابن حزم، بيروت، ت: يوسف أحمد البكري، ط/١/ (١٤١٨-١٩٩٧).
- أخبار مكة للفاكهي، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي الفاكهي (ت ٢٧٢هـ)، ت: د. عبد الملك دهيش، دار خضر، بيروت، ط/٢/، (١٤١٤).
- الله ليس كذلك، زيغريد هونكة، دار الشروق، ط/٢/، (١٤١٧-١٩٩٦).
- الأموال، لأبي عبيد، القاسم بن سلام، كتاب الأموال، تأليف: أبو عبيد القاسم بن سلام، دار النشر: دار الفكر، بيروت، (١٤٠٨-١٩٨٨)، ت: خليل محمد هراس.
- الإنجيل والصليب، عبد الأحد داود، بلا.
- تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١/ (١٤٠٧).
- تاريخ دمشق، لابن عساكر، ت: علي شيري، دار الفكر، دمشق.
- تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي شعراوي، بلا.
- التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١/ (١٤٢١-٢٠٠٠)،
- التفسير المنير، أ.د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، (١٤١٨).
- جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، مؤسسة الرسالة، ت: أحمد محمد شاكر، ط/١/ (١٤٢٠-٢٠٠٠).
- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار عالم الكتب، الرياض، ت: هشام سمير البخاري، (١٤٢٣-٢٠٠٣).
- الجامع الصحيح، البخاري، دار ابن كثير، دار اليمامة، (١٤٠٦هـ ١٩٨٧م) ط/٣/، ت: د. مصطفى البغا.

- الحضارة الإسلامية، لأدم متز، بلا.
- حضارة العرب، غوستاف لبون، بلا،
- الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، مكتبة النهضة المصرية، ط/٣/، (١٩٧٠).
- الخراج لأبي يوسف، بلا.
- سنن أبي داود، دار الفكر، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.
- سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ت: أحمد شاکر وآخرون.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٩/ (١٤١٣ - ١٩٩٣).
- شرح معاني الآثار، أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة أبو جعفر الطحاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١/ (١٣٩٩)، ت: محمد زهري النجار.
- شرح مشكل الآثار، للطحاوي، مؤسسة الرسالة، ت: شعيب الأرنؤوط، ط/١/ (١٤١٥ - ١٤٩٤).
- شعب الإيثار، البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٠هـ)، ت: محمد السعيد بسيوني.
- صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، ت: محمد فؤاد عبد الباقي.
- طبقات ابن سعد، دار صادر، بيروت.
- المسند، للإمام أحمد، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون.
- الناشر: مؤسسة الرسالة، ط/٢/ (١٤٢٠ - ١٩٩٩).
- فتوح البلدان، البلاذري، لجنة البيان العربي، القاهرة.
- الفروق، للقرافي، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٨ - ١٩٩٨).
- الفهرست، محمد بن إسحاق أبو الفرج النديم، دار المعرفة، بيروت، (١٣٩٨ - ١٩٧٨).
- في ظلال القرآن، لسيد قطب، بلا.
- قالوا عن الإسلام، د. عماد الدين خليل، بلا.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، دار الجليل، بيروت.
- الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار الكتب العلمية، بيروت، ت: عبد الله القاضي، (١٤١٥).
- كشف المشكل من حديث الصحيحين، أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، دار الوطن، الرياض، ت: علي حسين البواب. (١٤١٨ - ١٩٩٧)،
- مجمع الزوائد للهيثم، دار الريان للتراث، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٤٠٧هـ).
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمع وتحقيق د. محمد حميد الله آبادي.

- مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور، بلا.
- المستدرك للحاكم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١//١، ت: مصطفى عبد القادر عطا.
- المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض، أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن حديدة الأنصاري، عالم الكتب، بيروت، ت: محمد عظيم الدين، (١٤٠٥).
- المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.
- المعجم الكبير، الطبراني، مكتبة العلوم والحكم، ط ٢//١، الموصل، (١٤٠٤هـ-١٩٨٣م)، ت: حمدي السلفي.
- موسوعة الكتاب المقدس، شحادة بشير، بلا.
- النهاية في غريب الأثر النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، المكتبة العلمية، بيروت، (١٣٩٩هـ-١٩٧٩م)، ت: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي.
- هداية الحيارى، بان القيم، بلا.
- واقعنا المعاصر، محمد قطب، مكتبة رحاب الجزائر.